مَجلّة فصليّة محكّمة

تُعنى بعلوم كتاب نهج البلاغة
وبسيرة الإمام علي وفكره

تَصْدُرُ عَنْ

الأمانَة العامَّة للعَتَبة الْحُسَيْنيَّة الْمُقَدَّسَة

مُؤسَّسة عُلوم نَهج البَلاغَة

مُجازَةٌ من وِزارَةِ التَّعْليمِ العالي والبَحْثِ العِلْميّ
مُعْتَمَدةٌ لأغراضِ التَّرْقِيَةِ العِلْمِيّة

السّنة الثانية- العدد الثالث

رَجَب/١٤٣٨هـ- نِيسَان/ ٢٠١٧م

إِدَارَةُ الحَرْبِ وَتَنْظِيمُ العَسْكَرِ
قِرَاءَةٌ
فِي كُتُبِ الإِمَامِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ (عَلَيْهِ السَلَامُ)

أ. م. د. محمد جعفر العارضي
كلية الآداب
جامعة القادسية

War Management and Soldiers Organization
(Reading on the Covenant of Imam Ali Ibn Abitalib)

Keyword: Imam Ali, books and recommendations, war management, soldier selection, valour investment, soldier rest, marching time, parade organization, surveillance, war secrets and the field leadership.

Asst. Prof. Mohammed Ja`afer Al-`Aradhi,
College of Arts
University of Al-Qadesiya

ملخص البحث

للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) كتب في تنظيم الجيش و قيادته، أرسلها إلى القادة و الأمراء، و الجند في الميدان ضمَّنها كثيرًا من فنون الحرب والقتال وخططها، وعوامل النصر والغلبة، وطرائق التعاطي مع الجند في سوح الحرب، حاولت في هذا البحث أن أقف على ظهوراتها اللفظية؛ بغية الوصول إلى مضامينها، والدلالة على ما فيها من رسائل أو أفكار تتصل بفنون إدارة الحرب و قيادة الجند؛ وصولًا إلى تحقيق النصر.

الكلمات المفتاحية: الإمام علي؛ الكتب و الوصايا ؛ إدارة الحرب؛ اختيار الجند؛ إستشمار الإقدام، إراحة الجند؛ أوقات المسير؛ تنظيم الصفوف؛ نشر العيون؛ أسرار الحرب؛ القيادة الميدانية.

Abstract

For the Imam Ali, the commander of the believers, there are many products tackling, sent to leaders and rulers, the states of the army organization, leadership, soldiers in the battlefields, skills of fighting, war plans, factors of victory and how to respond to the soldiers in the battlefields. However, the actual study endeavours to manipulate the fount of all these and their utterance origin to cull the triumph.

المقدَّمة

ينصرف البحث إلى تبيان الرؤى العسكرية للإمام علي (عليه السلام) من خلال النظر في كتبه التي يتضمَّنها نهج البلاغة، و الوقوف على الكتب العسكرية منها.

وبعد الاستقراء وجدت تسعة من الكتب رأيت أنَّها في المحور العسكري، والإدارة العسكرية، وقادة الجند، وتنظيم صفوفهم، والتخطيط الميداني للمعارك، ووصفها وبيان أهدافها.

وحاولت وأنا انظر في هذه الكتب أن أضع ما يمثِّل سبيلًا تربط الرؤى العسكرية الحديثة بالرؤى العسكرية العلوية على نحو واقعي مكثَّف لا يدخل في الغلو.

اخترت أن أصنِّف هذه الكتب تصنيفًا يعتمد من أرسلت إليه، من ثَمَّ أستجلي بعضًا من مضامينها في ضوء التحليل و الشرح.

واستطعت تصنيف هذه الكتب إلى مجموعتين: كتب أرسلها إلى أمراء الجند، وكتب أرسلها إلى الجند.

كان يستحث القادة والجند في هذه الكتب على القتال، و يضع لهم الخطط، و يستغرق في بيان فنون القتال و المواجهة.

وهكذا تتجلَّى المظاهر العسكرية عند الإمام علي (عليه السلام) في مجموعة كتب خاطب بها قادة جنده، ومجموعة أخرى خاطب بها جنده.

كان البحث في مطلبين:

(الأول): يتعاطى مع كتب الإمام علي (عليه السلام) ووصاياه إلى قادة جنده و أمرائه.

وقد وقفت فيه على خمسة كتب أرسلها إلى بعض أمراء جيشه.

(الثاني): وجاء في كتب الإمام علي (عليه السلام) ووصاياه إلى جنده.

وقد عرضت فيه لثلاثة كتب كان يوصي فيها الجند.

ومثَّل كلُّ كتاب فقرة من فقرات

المطلبين تضمَّت بعضًا من المضامين العسكرية التحليلية التي اخترت لها عنوانات دالَّة؛ وصولًا إلى إنتاج مغازيها التي تخلق حراكًا عسكريًّا قيميًّا متنوعًا أضعه أمام أنظار منظِّري الحرب الحديثة لمقاربته من جهة، والدلالة على ما بلغه الإمام علي (عليه السلام) في هذا المضمار.

ورأيت أن أفيد في ذكر كتب الإمام علي (عليه السلام) من عنواناتها التي كانت لها في نهج البلاغة، فسأذكر بهذه العنوانات التي استعملت معها فيه.

و رأيت أيضًا أن أسبق هذين المطلبين بوقفة مختصرة على ما يمكن تسميته إنسانية الحروب التي خاضها الإمام علي (عليه السلام) رغبة في بيان قيم الحرب و أخلاقياتها التي كان الإمام علي (عليه السلام) يحرص عليها.

حروب الإمام (علي عليه السلام)
(مقاربة إنسانية)

على الرغم من أنَّ الحرب تأتي على نحو عام بالدمار والخسارة للإنسانية، غير أنَّ غير واحد من المفكرين يرى فيها بعضًا من المظاهر الإيجابية، من قبيل تنشيط الأمَّة و تجنب الترهل والتحجُّر الذي قد يحدثه السلام من جهة، و ما يمكن أن تخلقه الحرب من حوافز نحو التطوّر من جهة أخرى، فضلًا عن أثر الحرب في تنشيط الصحة الأخلاقية لدى المجتمعات[1]، وتحقيق السعادة لدى المنتصرين من خلال الشعور بالقوة[2].

وهذا يحفِّز من جانب آخر أن يعمل المنهزمون على عوامل القوَّة لتنميتها؛ رغبة في إذكاء مشاعر السعادة لديهم. و ينبغي هنا أن أشير إلى أنَّ للحروب آثارًا تدميرية لا توازيها الآثار الإيجابية التي يذكرها المفكِّرون؛ ذلك بأنَّ ظروف السلام مدعاة للنشاط، والعمل، والتقدُّم في ظلِّ الحياة الإنسانية المدنية التي

تبتعد عن كثير من لوازم العسكرة، والتجنيد، ونفقات التسليح، فضلًا عن حفظ حياة الإنسان وموارده؛ وصولًا إلى سعادته.

وتأتي حروب الإمام علي (عليه السلام) في طلائع الحروب الإيجابية؛ ذلك بأنَّها كانت في مواجهة المارقين و الباغين على شرعية الدولة الإسلامية من جهة، و لأنَّها كرَّست منظومة القيم العسكرية الإنسانية من جهة أخرى.

لقد شهدت مدَّة خلافة الإمام علي (عليه السلام) سلسلة من الحروب التي وقعت بين المسلمين أنفسهم، وعلى الرغم من أنَّ الإمام عليًّا (عليه السلام) لم يكن ليتخذ من الحرب الوسيلة الوحيدة لحل النزاع الذي يحصل آنذاك، لكنَّه وجد نفسه مضطرًا لخوض تلك الحروب؛ ومن ثم السعي إلى اكتشاف قواعد القتال، المتعلِّقة بالجانب الإنساني، من قبيل الرحمة، و النهي عن السلب و النهب، و الدعوة إلى تلافي القتل الذي لا يدخل في حسم معركة ما[٣].

وفي سياق عدم رغبة الإمام علي (عليه السلام) في الحرب، كان يعمد في إدارة الصراعات التي حدثت في زمن خلافته إلى المفاوضة، و التحكيم، والصلح.

وهكذا فإنَّه لم يبدأ حربًا في معاركه كلِّها، بل كان يسعى إلى المفاوضة قبل اندلاع معاركه التي كانت في أغلبها حروبًا أهليَّة قامت بها جماعات منظَّمة من البغاة يسعون إلى السلطة[٤].

المطلب الأول
كتب الإمام علي (عليه السلام) إلى قادة جنده و أمرائه

يحرص الإمام علي (عليه السلام)على التواصل مع قادة جنده وأمراء عسكره؛ رغبة منه في مواكبة أحوالهم، وإدامة توجيههم، ورفد عزيمتهم.

ووجدت أنَّ هذه الكتب التي

في نهج البلاغة يمكن أن تنقسم على كتب أرسلها (عليه السلام) إلى العامَّة من قادة الجند، وكتب أرسلها إلى الخاصَّةمنهم.

(الأول) كتبه العامَّة إلى أمراء الجيش

(١) كتابه إلى بعض أمراء جيشه:

يقول فيه عليه السلام: «فإن عادوا إلى ظلِّ الطاعة فذاك الذي نُحبُّ، و إن توافتِ الأمور بالقوم إلى الشقاق فانهَد بمن أطاعك إلى من عصاك، و استعن بمن انقاد معك عمَّن تقاعس عنك، فإنَّ المُتكاره مَغِيبه خير من شهوده، و قعوده أغنى من نهوضه»[٥].

يذكر حال الجند، فهم بين الطاعة و الخذلان؛ فيضع أمام أميرهم ما ينبغي عليه فعله في الميدان من ضرورة النهوض بأهل الإقدام، و الاستغناء عن المتثاقلين وأهل الخذلان[٦].

أمَّا مضامينه العسكرية التنظيمية فتتمثَّل في:

(أ) الاستغناء عن المتقاعس والمتكارِه:

المتكارهون ممن يتثاقلون كراهة للحرب، والمتقاعسون الذين يتأخَّرون ويقعدون[٧] عن الحرب كسلًا وضعفًا، وأهل الشقاق والعصيان، مما يُتوقَّع وجودهم في صفوف الجند؛ فعلى القائد أن يستغني عن هؤلاء ويُقعدهم عن الحرب؛ ذلك بأنَّ من تمكنَّ منه ذلك أضحى ((وجوده في الجيش يضر أكثر مما ينفع))[٨]و ينبغي هنا أن نلحظ أنَّنا أمام مظهر من مظاهر النظر العسكري الواقعي الذي يشير إليه الإمام (عليه السلام)، ويضعه أمام أنظار قادة جنده؛ فيدعوهم لامتلاك المقدرة على تشخيص هؤلاء الجند، وتمحيص روحهم العسكرية؛ وصولًا إلى عزل هؤلاء المتخاذلين؛ لعدم الانتفاع بهم من جهة، وخشية أن يبثُّوا روح الشقاق والتخاذل في صفوف الجند[٩].

وهو درس عسكري تتصاعد آثاره في بناء عقيدة الجيش على أسس الانتماء والرغبة والإيمان بمشروع الحرب وأهدافها.

ومما يلحظ أنَّ الكتاب العلوي قد أشار إلى هؤلاء، ووضع آليَّات التعاطي معهم في طليعة ما ينبغي للقائد معرفته وفعله؛ لخطره وتفاقم آثاره في حال تغاضى عنه.

(ب) استثمار إقدام الجند:

يأتي (انْهد) الدالُّ على النهضة[10] إلى الحرب في سياق إقدام الجند، وضرورة استثمار هذا الإقدام لإحداث الغلبة.

وفي هذا الاستعمال ما فيه من الإشارة إلى السرعة، والإصرار، والإيمان بالحرب وعقيدتها؛ ذلك بأنَّ العقيدة العسكرية ذات آفاق متنوعة تتمثَّل في السياسة العسكرية الواضحة، فضلًا عن طبيعة الحرب و أهدافها[11].

من هنا فإنَّ الإمام علي (عليه السلام) يضع درسًا مهمًّا في عقيدة الحرب، والنظرية العسكرية وسياستها الكلِّية. و هو ما تعمل عليه العقيدة العسكرية الحديثة.

ويتعزَّز موقف المُقدِمين بانقيادهم، وطاعتهم الأمير و هم في ساحة الحرب؛ فتكون أمام الأمير العسكري مقومات ومعطيات إيجابية تحفِّزه على النهوض بهؤلاء بروح القائد الواثق، و الاستغناء عمن سواهم.

(٢) كتابه إلى أمرائه على الجيش:

في هذا التاب يقول (عليه السلام): «أمَّا بعد فإنَّ حقًّا على الوالي ألَّا يُغيِّره على رعيته فضل نالـه، ولا طَوْل خُصَّ به، وأن يزيده ما قَسَم الله له من نِعَمه دُنُوًّا من عباده، وعطفًا على إخوانه.

ألا وإنَّ لكم عندي ألَّا احتجز دونكم سِرًا إلَّا في حرب، ولا أطوي دونكم أمرًا إلَّا في حُكم، ولا أوخِّر لكم حقًّا عن محلِّه، ولا أقف به دون

مَقْطعه، وأن تكونوا عندي في الحق سواء، فإذا فعلت ذلك وجبت لله عليكم النعمة، ولي عليكم الطاعة، وألَّا تنكصوا عن دعوة، ولا تُفرِّطوا في صلاح، وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق، فإن أنتم لم تستقيموا لي على ذلك لم يكن أحد أهون عليَّ ممن اعوجَّ منكم، ثم أعظِم له العُقوبة، ولا يجد عندي فيها رُخصة، فخذوا هذا من أمرائكم، وأعطوهم من أنفسكم ما يُصلِح الله به أمركم»[١٢].

نحن هنا أمام كتاب في تمحيص الولاة وقادة الجند، وبيان طبيعة علاقتهم بالقائد الأعلى، وضرورة أن تكون علاقة ولاء له من جهتم، ومساواة لهم من جهته، وإشراك لهم في شؤون إدارة البلاد.

مع لحاظ كتمان ما يتَّصل بشؤون الحرب لأسباب تتمثَّل برغبة أغلبهم عنها، وخشية أن يشيع أمرها فيصل العدو، فتُفتقد المباغتة.

و فيه بيان أنَّ الإخلال بالولاء يقابل بالعقوبة[١٣].

ولمَّا كان الإمام علي (عليه السلام) يتحلَّى بفكر إداري شامل[١٤]؛ فإنَّ هذا الكتاب يمكن أن يكون من مصاديق الإدارة الشاملة ذات اللحاظات المدنية والعسكرية المتنوِّعة التي يحرص الإمام (عليه السلام)على ضرورة نشرها و تعليمها.

عندما يذكر الإمام علي (عليه السلام) هذه المظاهر الإدارية المتنوِّعة، يجعل بينها أمرين عسكريين يدخلان في سياق القيادة و التنظيم:

(أ) أسرار الحرب:

الأسرار العسكرية من المسائل المرتبطة بالعلوم العسكرية. وهي في كتاب الإمام (عليه السلام) من ضرورات الحرب، وأسباب تحقيق الغلبة؛ ومن شدَّة حرصه عليها جعلها مخصوصة به لم يطلع قادته عليها، على الرغم من أنَّ لهم عنده إشراكهم في أمور دولته.

يقول «ألا و إنَّ لكم عندي ألَّا

احتجز دونكم سِرًا إلَّا في حرب».

و قد ترك أمر مشورتهم بسبب من (أنَّ أكثرهم ربَّما لا يختار الحرب فلو توقف على المشورة فيه لما استقام أمره بها)[١٥].

ومن جهة ثانية لعلَّه رأى (أن يكتم ذلك خوف انتشاره إلى العدو فيكون سبب استعداده و تأهبه للحرب)[١٦].

هذان ملحظان استخباريان تعبويان على غاية من الدقة كبيران، يحرص الإمام علي (عليه السلام) القائد العسكري على استحكامهما في أمر جيشه و إدارة حربه.

(ب) خطط الحرب:

عندما يستعمل الإمام علي (عليه السلام) «وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق» في سياق ما ينبغي أن يكون عليه قادة جنده، فهو لا يريد بها اشتراكهم في الحرب حسب، وإنَّما يريد لهم أن يكونوا على دراية بفنونها، و حسن التخطيط لها، و لعلَّ السياق يُعين على ذلك؛ فاستعمل (غمرات) الدالة على الشدَّة[١٧]؛ للإحاطة بهذا المعنى الواسع.

(الثاني) كتبه الخاصَّة إلى أمراء الجيش

(١) وصيته لمعقِل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام:

جاء فيها: «اتَّقِ اللهَ الَّذِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ وَسِرِ الْبَرْدَيْنِ وَغَوِّرْ بِالنَّاسِ وَرَفِّهْ فِي السَّيْرِ وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ فَإِنَّ اللهَ جَعَلَهُ سَكَناً وَقَدَّرَهُ مُقَاماً لَا ظَعْناً فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهَ ...»[١٨].

يضع الإمام علي (عليه السلام) هنا مجموعة من الخِلال التي يجدر بأمير الجند أن يتحلَّى بها، من قبيل التقوى، وعدم المبادرة إلى الحرب إلَّا بعد النُّصح، فضلًا عن أنَّه يضع أمورًا تتصل بالعمل الحربي، و توقيتات السير بالجند، ووضع

القائد في الميدان، مع إشارات إلى الجوانب النفسية، و متطلبات الراحة البدنية[١٩].

تتجلَّى في هذا الكتاب نظرات عسكرية تتعلَّق بالعمل العسكري التنظيمي، ولوازم الحرب من تخطيط تفصيلي. وهو كتاب فريد بنظراته العسكرية، ذات اللحاظات التعبوية المهمَّة التي تمثِّل تجربة الإمام علي (عليه السلام) في الإعداد التنظيمي للجيوش.

ومن اللازم هنا أن تكون إشارة إلى ضرورة أن يفيد القادة العسكريون في معاركهم الحديثة من هذه النظرات العسكرية العلوية الكبرى التي تنظر في دقائق تفاصيل التنظيم العسكري وأهميته:

(أ) وقت السير إليها:

لا يقتصر النظر العسكري على عناصر التسليح، والجند، والمؤنة، بل تشخص في كتاب الإمام علي (عليه السلام) مسألة السير إلى الحرب و أوقاته، فيضع توقيتات أقل ما يُقال عنها إنَّها غاية في الدقَّة؛ فيجعل (البرديـن) وهما الغداة و العشي[٢٠] وقتًا للسير إلى الحرب؛ لبردهما[٢١].

وغير خاف ما في هذين الوقتين من آثار الارتياح، والاستجمام؛ فيرصد الإمام (عليه السلام) ذلك للإفادة منه في تجنُّب المتاعب، عندما يكون وقت السير بالجند في غيرهما.

ويذكر الكتاب أنَّ استئناف السير بعد طلب الراحة يكون (حين ينبطِح السَّحَر)، أو (حين ينفجِر الفجر)؛ ((لأنَّها مظنَّة طيب السير))[٢٢].

(ب) إراحة الجند و الدواب:

يظهر هذا في استعمال (غَوِّر بالناس)، و(رَفِّه بالسير) للدلالة على التهوين عليهم، وعدم إتعابهم[٢٣]، وضرورة إراحتهم والنزول بهم للقيلولة عند وقت الغائرة، و هو وقت اشتداد الحر[٢٤].

يقف الإمام علي (عليه السلام) من خلال هذين الدليلين اللفظيين

على ما ينبغي للقائد أن يلحظه في مسيره إلى حرب أعدائه من توخِّي الراحة وطلبها، والمسير البطيء؛ ((ليلحق الضعيف القوي، ولا يظهر التعب على الناس لحاجتهم إلى فضل القوة والاستجمام))[٢٥].

ويمنع الإمام (عليه السلام) في هذا السياق السير إلى الحرب ليلًا؛ ذلك بأنَّ الله تعالى (جعله سكنًا)، و(قدَّره مُقامًا لا ظعنًا)، فيه ينبغي أن تكون إراحة البدن، وترويح الظهر.

فالليل ((يستراح فيه من المتاعب و يسكن إليه بعد النفرة))[٢٦].و تظهر هنا العناية و الدقَّة في بيان ((رغبة علي (عليه السلام) في تقصير أمد المعارك والإقلال من القتل))[٢٧].

ومما لا يحتاج إلى كثير عناء إثبات أنَّ هذا الذي تتبنَّاه المدرسة العسكرية العلوية كفيل بأن يضعها مدرسة عسكرية أولى بلحاظ توخِّي الجوانب الإنسانية من جهة، وضرورة ضغط وقت الحرب وتفادي القتل الكثير، انطلاقًا من أنَّ الإنسان قيمة عليا لا ينبغي إعدامها الحياة.

ومعنى هذا أنَّ الإمام عليًّا (عليه السلام) يضع قاعدة عسكرية مفادها أنَّه مع حرب الدفاع لا حرب الهجوم، و أنَّ الحرب للحياة والدفاع عنها.

و هذا الملمح العسكري الفريد ينبغي أن تلتفت إليه المدارس العسكرية الحديثة و تتَّخذ منه أسوة و دليل عمل يقتدى.

(ج) مباشرة القيادة في الميدان:

يستكمل الإمام علي (عليه السلام) تفكيره العسكري النموذجي النوعي في هذا الكتاب، فيصل مع قائد جيشه إلى مرحلة بلوغ العدو، والشخوص في ميدان الحرب؛ فيرسم له موضعه من جنده وأصحابه، وموضعه من جيش أعدائه بدقَّة.

يقول (قف من أصحابك وسطًا)، على القائد أن يقف وسطًا من أصحابه؛ بغية أن يتمكَّن من

التواصل معهم على نحو متساو، و ((يكون نسبة الطرفين في الرجوع إليه و الاستمداد بسماع أوامره على سواء))[٢٨].

أمَّا موقفه من أعدائه فينبغي أن يكون على مسافة لا تشعر بأنَّه يريد المبادرة بقتال من جهة، ولا تشعر أيضًا بخوفه وهلعه؛ فيطمع فيه أعداؤه[٢٩]. وذلك قوله «لا تدنُ من القومِ دنوَّ من يُريدُ أن يُنشِب الحرب، ولا تباعد عنهم تباعُد من يهاب الحرب».

(٢) كتابه إلى أمير من أمراء جيشه يولِّي عليه مالك الأشتر:

يتضمَّن هذا الكتاب قوله (عليه السلام): «وقد أمَّرت عليكما وعلى من في حَيِّزكما مالك بن الحارث الأشتر، فاسمعا له وأطيعا، اجعلاه دِرعًا ومِجَنًّا؛ فإنَّه ممن لا يُخاف وهنه، لا سقْطته، ولا بطؤه عمَّا الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل»[٣٠].

يذكر هنا بعضًا من الصفات التي يلزم توافرها فيمن يُختار لقيادة الجيش، وهي بين أن تكون صفات بدنية، وصفات روحية، وصفات عقلية، تتمثَّل في القوة، و الرأي[٣١]. وتفصيل ذلك:

(أ) قوَّة القائد و شجاعته:

لقد خبِر الإمام علي (عليه السلام) قوَّاد جيشه ومحَّصهم، فأظهر مالك الأشتر ما جعله يشهد له بقوة تكسوها شجاعة فائقة، فمالك سيكون (درعًا ومِجنًّا) يحميكما[٣٢]؛ ذلك بأنَّه (لا يُخاف وَهْنه)، فهو لم يضعُف في حرب[٣٣]. و هنا تأكيد ما ينبغي أن يكون عليه قائد الجيش من قوَّة وشجاعة، يشعر معها أصحابه بالأمن والعزيمة.

(ب) حسن رأيه و سرعة بديهته وحزمه:

لم يقصر الإمام علي (عليه السلام) صفات أمير جيشه على قوَّة البدن وشجاعة الروح، بل ضمَّ

إليهما صفة مهمَّة ذات أبعاد عقلية؛ فهو لا يخاف ضعفه (ولا سقْطته). و السَّقْطة زلَّة في رأي[٣٤] يقع فيها المرء. و هو فوق ذلك لا يُخاف «بُطؤُه عمَّا الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل»، بمعنى أنَّه يضع كلَّ شيء في موضعه، فلا إسراع فيما يقتضي البطء، ولا إبطاء فيما يقتضي الإسراع[٣٥]، وهو ذو حزم[٣٦]، غير متذبذب في ذلك.

(٣) كتابه إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حُلوان:

جاء فيه: «أمَّا بعد فإنَّ الوالي إذا اختلف هواه مَنَعه ذلك كثيرًا من العدل، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواءً، فإنَّه ليس في الجور عِوض من العدل، فاجتنب ما تنكر أمثاله، وابتذل نفسك فيما افترض الله عليك، راجيًا ثوابه، ومتخوِّفًا عِقابه

واعلم أنَّ الدنيا دار بليَّة لم يفرغ صاحبها فيها قطُّ ساعة إلَّا كانت فرْغَته عليه حسرة يوم القيامة، وأنَّه لن يُغنيك عن الحق شيء أبدًا، ومن الحق عليك حفظ نفسك، والاحتساب على الرعية بجُهدك، فإنَّ الذي يصل إليك من ذلك أفضل من الذي يصل بك»[٣٧].

هذا كتاب يوصي أمير المؤمنين (عليه السلام) فيه بالعدل والمساواة بين الرعيَّة والعمل على إصلاح أمورهم، طالبًا أن يتخذ صاحب الجند في ذلك من نفسه مرآة، فيوجهها نحو الحق، وترك الهوى. مع تأكيد مسألة تحبيذه بالآخرة، وضرورة التعاطي مع الدنيا بلحاظ أنَّها دار ابتلاء[٣٨].

المطلب الثاني

كتبه و وصاياه إلى جنده

(١) وصيته إلى جيش بعثه إلى العدو:

يذكر الإمام علي (عليه السلام) في هذه الوصية: «فإذا نزلتم بعدوٍّ، أو نزل بكم، فليكن مُعسكركم في قُبُل الأشراف، أو سِفاح الجبال، أو

أثناء الأنهار، كيما يكون لكم ردءًا، ودونكم مَرَدًّا. و لتكن مُقاتلتكم من وجهٍ واحدٍ أو اثنين، و اجعلوا لكم رُقباء في صياصِي الجبال، ومناكِب الهضاب، لئلا يأتيكم العدوُّ من مكان مخافةٍ أو أمنٍ. واعلموا أنَّ مقدِّمة القوم عيونهم، وعيون المقدِّمة طلائعهم، وإيَّاكم والتفرُّق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعًا وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعًا. وإذا غَشِيكم الليل فاجعلوا الرماح كِفَّة، ولا تذوقوا النوم إلَّا غِرارًا أو مضمضةً»[٣٩].

وتظهر في هذا الكتاب القيادة الميدانية التي خبرت الحرب؛ فتضع نظرها العسكري التكاملي المتعلِّق بالمعسكرات الحربية، ومواجهة الأعداء. و فيه اهتمام بالعوامل العسكرية الآتية:

(أ) مواضع الجند:

يضع الإمام علي (عليه السلام) ملاحظه العسكرية المتعلِّقة بتنظيم مواقع الجند في المعارك، فيحثهم على أن تكون مُعسكراتهم في مواجهة الأماكن العالية، أو في مواجهة الأنهار؛ لغرض أن تكون هذه الأماكن مانعة لهم من العدو، فضلًا عن حرصه على أن يتَّخذ الجند مواقعهم في المقاتلة من جهة واحدة، فلا يتفرَّقون فيضعفوا[٤٠].

(ب) عيون الجند:

لم يقتصر التفكير العسكري عند الإمام علي (عليه السلام) على تنظيم الصفوف المقاتلة بل راح يضع تنظيمًا دقيقًا للعمل الاستخباري، واستعلام أخبار جيوش العدو.

وهكذا فهو يدعو إلى نشر العيون والحفظة، ويختار لهم الأماكن العالية المشرفة على الأعداء، فيريد منهم أن يضعوا (رُقباء في صياصِي الجبال، و مناكِب الهضاب)؛ وصولًا إلى اقتناص المعلومة الصحيحة ليتمكَّن الجيش في ضوئها أن يحدد خياراته.

مع لحاظ أنَّه هنا يشير إلى أنَّ واجب هؤلاء لا يقتصر على المراقبة

و رصد تحركات جيش الأعداء، بل يصل إلى صدّ هجومهم المباغت[٤١] أيضًا.

ومن جهة أخرى يشير الإمام علي (عليه السلام) إلى ضرورة مراقبة طلائع جيش العدو؛ فإنَّ تحركاتهم هي التي تكشف عن نوايا الجيش كلِّه من هجوم[٤٢]، أو مناورة.

(ج) الحراسة و الحذر:

يستكمل الإمام علي (عليه السلام) في هذا الكتاب كلَّ متطلبات التنظيم والعمل العسكري؛ فيصل إلى الليل وما ينبغي على الجند أن يفعلوه لحماية معسكرهم، فيأمرهم أن يجعلوا (الرماح كِفَّة) أي مستديرة تحيط بهم ككفة الميزان[٤٣]، و يكون نومهم نوم الحارس غير المطمئن[٤٤].

(٢) وصيته لجيشه قبل لقاء العدو بصفين:

قال فيها (عليه السلام): «لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإنَّكم بحمدِ اللهِ على حُجَّةٍ، و تركُكم حتَّى يبدؤوكم حُجَّة أخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذنِ الله فلا تقتلوا مُدبِرًا، ولا تُصيبوا مُعوِرًا، و لا تُجهزوا على جريح، ولا تَهيجوا النساءَ بأذىً، وإن شتمنَ أعراضكم، وسببن أُمراءكم، فإنَّهنَّ ضعيفاتُ القُوى و الأنفس و العقولِ، إن كُنَّا لنُؤمرُ بالكفِّ عنهُنَّ و إنَّهُنَّ لمشركاتٌ، وإن كان الرجلُ ليتناولُ المرأةَ في الجاهلية بالفِهرِ أو الهِرَاوةِ فيُعيَّرُ بها و عقِبُه من بعده»[٤٥].

هذه وصيَّة نفث فيها علي (عليه السلام) من صدره كلامًا هو غاية ما يمكن أن يكون في قيم الحرب و أخلاقها، من خلال تكريس العقيدة العسكرية ذات اللحاظات المتنوِّعة، ولا سيما ما يتَّصل بأن حرب المسلمين ينبغي أن تكون حربًا بلا أحقاد، تتحقَّق من خلالها الرسالة الإسلامية لهذه العقيدة[٤٦].

وليس يخفى على المتأمِّل أنَّ القيم التي ذكرها الإمام علي (عليه السلام)

جاءت كثير من الاتفاقيات الحديثة تؤكدها و تنص على الالتزام بها[٤٧]؛ لغرض التقليل من آثار الحرب.

ومن اللازم أن يقال في سياق الكلام على هذا الكتاب إنَّ عليًا (عليه السلام) ((طبَّق أرحم القواعد على مقاتلي الداخل المتمردين، دون أن تلزمه اتفاقيات أو معاملة بالمثل، بل القواعد التي آمن بها))[٤٨]؛ ما يدلُّ على أنَّ هذه الشخصية الإسلامية تضع الإنسان قيمة عليا في ظروف الحرب و ظروف السلام على حدٍّ سواء.

(٣) قوله لأصحابه عند الحرب:

يقول (عليه السلام): «لا تشتدَّنَّ عليكم فرَّةٌ بعدها كرَّةٌ، ولا جولةٌ بعدها حملةٌ، وأعطوا السيوفَ حُقُوقَها، ووطِّئوا للجُنوبِ مصارِعَها، واذمروا أنفسكم على الطَّعن الدَّعْسِيِّ، والضربِ الطِّلَحْفيِّ، وأميتوا الأصوات، فإنَّه أطردُ للفَشَلِ، والذي فلقَ الحَبَّةَ، و برأَ النَّسَمَةَ، ما أسلموا و لكن استسلموا، و أسرُّوا الكفرَ، فلمَّا وجدوا أعوانًا عليه أظهروه»[٤٩].

تتصدَّر هذا القول مجموعة من المضامين العسكرية المبنية على أساس من تكريس العقيدة العسكرية، وإعداد الجند[٥٠] للقتال:

(أ) تنظيم الصفوف و خداع الأعداء:

يعطي الإمام علي (عليه السلام) درسًا في المناورة، وتنظيم الصفوف، وممارسة خداع العدو، وذلك في قوله «لا تشتدَّنَّ عليكم فرَّةٌ بعدها كرَّة، ولا جولةٌ بعدها حملةٌ»؛ لغرض الدلالة على أنَّكم ((إذا أردتم في فراركم مصلحة في خدعة العدو كالجذب له بذلك حيث يتمكَّن منه وتقع الفرصة فتكرُّوا عليه حينئذ فلا تشتدَّن عليكم الفرَّة، ووجه الشدَّة هنا أنَّ الفرار بين العرب صعب شديد لما يستلزمه من العار والسُّبَّة. فأشار إلى وجه تسهيله عليهم بأنَّه إذا كان بعده كرَّة فلا بأس به لما فيه من

المصلحة))[٥١].

(ب) فنون القتال:

يدرِّب الإمام (عليه السلام) جنوده، بقوله «أعطوا السيوف حُقُوقَها، ووطِّئوا للجُنوبِ مصارِعَها، اذمروا أنفسَكم على الطَّعن الدَّعْسِيِّ، والضربِ الطِّلَحْفيِّ». وهنا مجموعة من الفنون القتالية يذكرها الإمام (عليه السلام) على نحو من الخصوص؛ لأنَّها ما يحقق الحسم في المعركة.

وأراد بقوله (وطِّئوا للجُنوبِ مصارِعَها) الدلالة على ضرورة أن تكون الضربات محكمة صارعة للعدوِّ من دون حاجة إلى تثنيتها[٥٢]. أمَّا إعطاء السيوف حقوقها هنا فجاء ((كناية عن الأمر بفعل ما ينبغي أن يفعل))[٥٣]. ويتعزَّز هذا لديهم بأن (يحثُّوا أنفسهم على الطعن الذي يظهر أثره و الضرب الشديد)[٥٤].

(ج) التوجيه المعنوي:

تعلو القيمة التي يؤكدها علي (عليه السلام) في كتابه هذا؛ ذلك بأنَّها ذات بعد توجيهي، يرتبط بظروف الحرب، والرغبة في الثبات، ورفع روح الجند، فيأتي نهيه (عليه السلام) صوتًا مدويًّا «أميتوا الأصوات، فإنَّه أطردُ للفَشَل».

أراد ((لا يكثروا الصياح فإنَّه من علامات الفشل فعدمه يكون علامة للثبات المنافي للجبن والصياح))[٥٥].

وفي هذا السياق يأتي قوله (وطِّئوا للجُنوبِ مصارِعَها) للدلالة على العزم على القتل في سبيل الله تعالى، والإقدام على الحرب وتحمُّل أهوالها. وقد جاء ذلك على سبيل الكناية من خلال الإشارة إلى السقوط على الأرض[٥٦]؛ تحقيقًا للغرض على نحو لساني تصويري، يتمثَّل الدلالة على إرادة الجند في الفداء و الإقبال عليه.

الخاتمة

لقد ظهر أنَّ الإمام عليًّا (عليه السلام) يُظهر اهتمامًا كبيرًا و هو أمير الحرب، ودعامة الإسلام الكبرى

بمظاهر القيادة العسكرية، وفنون القتال فاختار للدلالة على ذلك طائفة من المفاهيم التي يدعو إلى اعتمادها و التمسك بها أثناء الحرب، أو عند تجهيز الجند، والاستعداد للقتال، و أكَّد من جهة ثانية ضرورة تحلي أمراء البلدان وقادتها بالمعارف العسكرية، والإدارة الحربية اللازمة. وهذا ما ضمَّنه بدقَّة ووعي في كتبه العسكرية ووصاياه لجنده.

وتظهر من هذه الكتب مجتمعة مجموعة من المضامين ذات النظر العسكري التعبوي تارة، والقتالي تارة أخرى.

إذ كان الإمام علي (عليه السلام) في كتبه هذه يدعو إلى الاستغناء عن المتقاعسين و القاعدين عن القتال؛ محذِّرًا من ضررهم في بث التهاون والخذلان، وفي المقابل يحث على استثمار إقدام الجند الآخرين، والنهوض بهم في سوح القتال، وفي التنظيم يواكب الإمام علي (عليه السلام) الجيش في مسيره إلى الحرب، فيختار له أوقات المسير، ويؤكِّد ضرورة إراحته، وصولًا إلى رسم الخطط للقادة؛ ليدلَّ على أمكان مباشرتهم القيادة وسط الميدان،ولم يغب عن خلد علي (عليه السلام) ما للروح المعنوية من أثر في الحرب، فأخذ يحث على مراعاتها، وتجنُّب ما يؤثر فيها سلبًا من أصوات، و يجد الإمام علي (عليه السلام) في الكرِّ والفرِّ ما يمكن أن يكون خدعة لعدو تجلب الغلبة؛ فيشير إليها، مستكملًا بذلك منظومة الحرب وقد وجدت في هذا السياق أيضًا أنَّ بعضًا من الكتب العسكرية كانت ذات مضامين عامة تحث على التقوى، والعدل، والإصلاح، وترك الهوى، والعمل بلحاظ حب الآخرة والتوق إليها؛ فتنشأ منظومة متماسكة في القيادة، وإدارة الحرب ومسالحها، تشتغل على أدواتها المادية من تخطيط وتنظيم وعدَّة وعدد، وتتحرَّك نحو

آفاقها العقدية، ومظاهر الإيمان والتقوى؛ فتضع النموذج الأمثل الذي تتجلَّى فيه مظاهر العقيدة العسكرية الإسلامية، من حيث التنظيم، والإدارة، والأخلاق العسكرية.

ومعنى ذلك أنَّ الشخصية الإمامية تظهر ذات أبعاد متنوعة؛ ذلك بأنَّ عليًّا (عليه السلام) يُضيف مظهرًا من مظاهر الشخصية القيادية؛ لينحاز بها نحو الكمال، وتوافر عناصر منظومتها القيادية التكامليَّة؛ فيضع أمامنا المثل الأعلى لهذه الشخصية التي توافرت لها أسباب القيادة على المستوى المدني و المستوى العسكري الذي عُني البحث به.

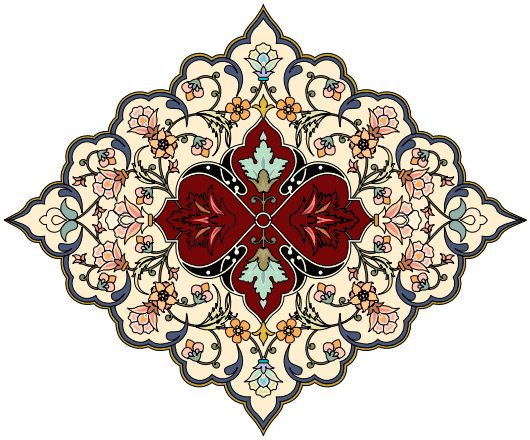

الهوامش

(١) ينظر. هيغل و الدولة، أريك وايل، ترجمة: نخلة فريفر، دار التنوير، بيروت ١٩٨٦، ص ٩٧.

(٢) ينظر. الإمام علي (عليه السلام) وقوانين الحرب الحديثة، محمد طي، ط ١، مركز الغدير للدراسات والنشر و التوزيع، بيروت ٢٠٠٩، ص ٣٢.

(٣) ينظر. الإمام علي (عليه السلام) و قوانين الحرب الحديثة، ص ٩.

(٤) ينظر. الإمام علي (عليه السلام) وقوانين الحرب الحديثة، ص ١٧- ٢١، ٢٤- ٢٦، ٤٠.

(٥) نهج البلاغة، المختار من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، تحقيق: هاشم الميلاني، العتبة العلوية المقدَّسة، النجف الأشرف ٢٠١٠، ص ٣٩١- ٣٩٢. الكتاب: ٤.

(٦) ينظر. شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ط١، منشورات الفجر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ص ٤/ ٢٠٢.

(٧) ينظر. نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، ط١، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان ٢٠١١، ص ٤٤٨.

(٨) نهج البلاغة، شرح محمد عبدة ٤٤٨.

(٩) ينظر. شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص٤/ ٢٠٢.

(١٠) ينظر. شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص٤/ ٢٠٢.

(١١) للوقوف على تفصيل مفهوم العقيدة العسكرية، ينظر. النظريات العسكرية بين الإعداد و التخطيط- دراسة قرآنية موضوعية، عبد الهادي سعيد الأغا، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، غزة ٢٠٠٥، ص ٣٦.

(١٢)نهج البلاغة، ص ٤٤٧- ٤٤٨. الكتاب: ٥٠.

(١٣) ينظر. شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٥/ ٣٢٧- ٣٢٨.

(١٤) ينظر. مبادئ الإدارة من منظور قيم الإمام علي (عليه السلام)، هاشم فوزي العبادي، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد السادس، جامعة الكوفة، العراق ٢٠٠٧، ص ١٠٦.

(١٥) شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٥/ ٣٢٧.

(١٦) شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٥/ ٣٢٨.

(١٧) ينظر. ترتيب كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، انتشارات أسوة، ايران ١٤٣٢، (غمر)، ص ٣/ ١٣٥٤.

(١٨)نهج البلاغة، ص ٣٩٨- ٣٩٩. الكتاب: ١٢.

(١٩) ينظر. شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٤/ ٢١١.

(٢٠) ينظر. نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، ص ٤٥٥. الهامش: ١.

(٢١) ينظر. شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٤/ ٢١١.

(٢٢) شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٤/ ٢١١.

(٢٣) ينظر. نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، ص ٤٥٥.

(٢٤) ينظر. شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٤/ ٢١١.

(٢٥) شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٤/ ٢١١.

(٢٦) شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٤/ ٢١١.

(٢٧) الإمام علي (عليه السلام) و قوانين الحرب الحديثة، ص ٦٣.

(٢٨) شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٤/ ٢١١.

(٢٩) ينظر. شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٤/ ٢١١.

(٣٠) نهج البلاغة، ص ٣٩٩. الكتاب: ١٣.

(٣١) ينظر. نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، ص ٤٥٥. الهامش: ٦.

(٣٢) ينظر. نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، ص ٤٥٥. الهامش: ٦.

(٣٣) ينظر. شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٤/ ٢١٣.

(٣٤) ينظر. نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، ص ٤٥٥. الهامش: ٦.

(٣٥) ينظر. شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٤/ ٢١٢.

(٣٦) ينظر. نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، ص ٤٥٥. الهامش: ٦.

(٣٧) نهج البلاغة، ص ٤٧٠. الكتاب ٥٩.

(٣٨) ينظر. نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، ص ٥٤٤. الهامش: ٤، ٥، ص ٥٤٥. الهامش: ١، ٢.

(٣٩)نهج البلاغة، ص ٣٩٧- ٣٩٨. الكتاب:١١.

(٤٠) ينظر. شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٤/ ٢١٠.

(٤١) ينظر. شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٤/ ٢١٠.

(٤٢) ينظر. شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٤/ ٢١٠.

(٤٣) ينظر. نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، ص ٤٥٤.

(٤٤) ينظر. شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٤/ ٢١٠.

(٤٥)نهج البلاغة، ص ٣٩٩- ٤٠٠. الكتاب: ١٤.

(٤٦) من أهم خصائص العقيدة العسكرية الإسلامية أن تكون الحرب بلا أحقاد، ولا تبتعد عن مكارم الأخلاق. ينظر. النظريات العسكرية بين الإعداد و التخطيط- دراسة قرآنية موضوعية (رسالة ماجستير)، ص ٤٢- ٤٤.

(٤٧) ينظر. الإمام علي (عليه السلام) وقوانين الحرب الحديثة، ص ٧٣- ٧٤.

(٤٨) الإمام علي (عليه السلام) وقوانين الحرب الحديثة، محمد طي، ص ١١٥.

(٤٩) نهج البلاغة، ص ٤٠٠- ٤٠١. الكتاب: ١٦.

(٥٠) إعداد الجند واحد من أهم عناصر العقيدة العسكرية. ينظر. النظريات العسكرية بين الإعداد و التخطيط- دراسة قرآنية موضوعية (رسالة ماجستير)، ص ٣٦.

(٥١) شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ٤/ ٢١٥.

(٥٢) نهج البلاغة، ص ٤٠١. الهامش: ١.

(٥٣) شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٥/ ٢١٥.

(٥٤) شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٥/ ٢١٥.

(٥٥) شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٥/ ٢١٥.

(٥٦) شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني، ص ٥/ ٢١٥. وهذه هي الدلالة الثانية المحتملة لهذا الاستعمال في هذا السياق.